

افتتاحية العدد

روح المبادئ الإنسانية في صورتها العملية

لندن، 9 أيلول/ سبتمبر 2015: بينما تواجه البلدان الأوروبية أزمة إنسانية ضخمة مع وصول آلاف الأشخاص من منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا طلبًا للجوء، يشعر الصليب الأحمر البريطاني بضرورة نشر مقال بعنوان «لماذا تساعد اللاجئين والمهاجرين؟» يبين المقال ما يلي: «نحن بطبيعة الحال هنا في الصليب الأحمر نتمتع بوضع خاص يسمح لنا بدعم السكان في المملكة المتحدة... إلا أن مبادئنا تؤكد أننا حينما وجدنا أشخاصًا في حاجة إلى مساعدة، لا نطلب منهم الاطلاع على جوازات سفرهم. بل نقدم لهم المساعدة ونوفر لهم الكرامة- وهو ما نتوقعه بعد رحلة قاسية نحو غياهب المجهول»¹.

هذا المثال الأخير للصليب الأحمر البريطاني يوضح تطبيق المبادئ الأساسية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وهي: عدم التحيز في تقديم المساعدة الإنسانية حسب أكثر الاحتياجات إلحاحًا وليس حسب الجنسية أو الوضع القانوني؛ والاستقلال الضروري الذي يتوخاه الصليب الأحمر البريطاني في قدرته على اتخاذ قرارات مستقلة بشأن مباشرة عملياته الإنسانية؛ والحياد في قرار الصليب الأحمر البريطاني في تجنب اتخاذ جانب معين في العناصر الخلافية لمسألة الهجرة المسييسة بصورة كبيرة، وفي الوقت ذاته اتخاذ موقف واضح إزاء الواجب الإنساني. والأهم من هذا وذاك، أن موقف الصليب الأحمر البريطاني مدفوع بمبدأ الإنسانية، وهو الأصل الذي تقوم عليه المساعي الإنسانية.

وعلى مستوى العالم، يفترض أن تسترشد برامج الإغاثة والحماية لصالح السكان المتضررين من النزاعات وحالات العنف الأخرى والكوارث، بمجموعة من المبادئ. وتميز هذه المبادئ الاستجابة الإنسانية عن غيرها من أشكال المساعدة. واستنادًا إلى تجارب المتخصصين في العمل الإنساني، نرى أنهم يزودون الجهات الإنسانية الفاعلة بيوصلة تساعدهم على الإبحار في خضم الخيارات الصعبة، مثل الإشكاليات المرتبطة بتحديد الأولويات في الحالات التي تفوق فيها الاحتياجات الموارد المتاحة أو التعارض بين أمن العاملين في مجال العمل الإنساني والوصول إلى السكان.

تعرضت هذه المبادئ لتحديات مستمرة وهي الآن تخضع للاختبار في علاقتها بظواهر من قبيل تصنيف الأزمات الحالية ومدتها وحجمها والظروف السياسية التي تعمل فيها الجهات الإنسانية الفاعلة وتطور القطاع ذاته.

وفي عشية الذكرى الخمسين لاعتماد المبادئ الأساسية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر (الحركة) وانعقاد المؤتمر الدولي الثاني والثلاثين للحركة في نهاية

Craig Burnett, "Why Do We Help Refugees and Migrants?", *British Red Cross Blog*, 9 September 2015, 1
:available at
<http://blogs.redcross.org.uk/emergencies/201509/why-do-we-help-refugees-and-migrants/>

عام 2015 وكذلك القمة الإنسانية العالمية التي عقدت مطلع عام 2016، هناك مبادرات عديدة تطلق لدراسة الممارسات المعاصرة وأثر المبادئ الأساسية والتأكيد على صلتها الوثيقة بالأوضاع الراهنة.

قررت المجلة الدولية الإسهام بهذا البحث وهذه المناقشة، من خلال طلب إسهامات من خبراء وممارسين في هذا العدد الذي يتناول موضوعاً معيناً وأيضاً في سياق الدورة البحثية والنقاشية الثانية التي نظمتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول المبادئ التي توجه العمل الإنساني على مدار عام 2015 واستضافت عدداً من المناقشات الموضوعية حول المبادئ.² ما هو الدور الذي قامت به المبادئ في العمل الإنساني؟ وما هي أهم التحديات التي تواجه الجهات الإنسانية الفاعلة في التقيد بهذه المبادئ في الأزمات وحالات الطوارئ الراهنة؟ وما هي الممارسات الفضلى في تطبيقها على الواقع الميداني المعاصر؟ كانت هذه الأسئلة مصدر إلهام لنا في التحضير لهذا العدد.

روح المبادئ الإنسانية: حيث تلتقي القيم بالواقعية

إن القيم التي تقوم عليها المبادئ الإنسانية- مثل فعل الخير والتعاطف والرحمة واحترام الحياة والكرامة الإنسانية- مترسخة دائماً وأبداً في جميع المجتمعات والأديان (الصدقة في المسيحية والدانا في الهندوسية والبوذية واليانانية والسيخية والزكاة في الإسلام والصدقة في اليهودية وغيرها) وتتدخل في جوانب شتى من الحياة، فعلى سبيل المثال ضرورة تقديم الرعاية الطبية حسب الحاجة ودون أي تمييز مبدأ تنص عليه آداب مهنة الطب.³

اعتمد القطاع الإنساني بصفة عامة المبادئ الأربعة للإنسانية وعدم التحيز والاستقلال والحياة، والتي يشار إليها عادة باسم المبادئ الإنسانية، لتمييزها عن المبادئ الإنسانية للحركة.⁴ واعتمدها كذلك الجمعية العامة للأمم المتحدة واعترفت بها باعتبارها المبادئ التوجيهية الرئيسية للعمل الإنساني تحت منظومة الأمم المتحدة.⁵ تستخدم عبارة «المبادئ الموجهة للعمل الإنساني» في هذا العدد من المجلة للإشارة إلى المبادئ الأساسية والمبادئ الإنسانية على حد سواء.⁶

2 تسجيلات الفعاليات متاحة على الرابط التالي:

www.icrc.org/en/cycle-principles.

3 انظر على سبيل المثال: إعلان جنيف الصادر عن الجمعية الطبية العالمية: «لأن أسمح أن تدخل بيني وبين واجبي نحو مريض اعتبارات منشؤها السن أو المرض أو العجز وكذلك الدين أو الأصل العرقي أو الجنس وكذلك الجنسية والاتجاه السياسي أو الميل الجنسي والوضع الاجتماعي أو أي عامل آخر». النسخة الإنجليزية متاحة على الرابط التالي:

www.wma.net/en/30publications/10policies/g1/.

4 من المبادئ الإنسانية أيضاً مبدأ الوحدة والعالمية والخدمة التطوعية التي اعتبرها «جان بيكتيه» مبادئ «عضوية» على أساس أن لها طبيعة مؤسسية. «هي معايير للتطبيق، ترتبط بهيكل وعمل المؤسسة، وهي تدخل حيز التنفيذ في المقام الأول من خلال علاقتها بمهام محددة. وهي أقل شمولاً من المبادئ السابقة»، «جان بيكتيه»، المبادئ الأساسية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، شرح، المجلة الدولية للصليب الأحمر، رقم 210، أيار/مايو- حزيران/يونيو 1979، الصفحة 136، النسخة الإنجليزية متاحة على الرابط التالي:

http://principlesinpractice.org/uploads/Library/Documents/RedCrossandRedCrescent/irrc_may-jun-1979.pdf.

5 انظر القرار رقم 182 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 46، 19 كانون الأول/ديسمبر 1991، الذي ينص على ما يلي «ينبغي توفير المساعدة الإنسانية وفقاً لمبادئ الإنسانية والحياد والنزاهة». واعترف بالاستقلال أيضاً كمبدأ توجيهي لتقديم المساعدة الإنسانية في عام 2004، في القرار رقم 114 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 58، 5 شباط/فبراير 2004.

6 هناك مقترحات دورية بإضافة مبادئ جديدة محتملة إلى القوائم الحالية، بما في ذلك ما ظهر في السنوات الأخيرة من مقترحات بإضافة مبادئ المساءلة ومشاركة المستفيدين ومبدأ «عدم الضرر» ومبدأ استدامة جهود الإغاثة. انظر على سبيل المثال مشروع أسفير

(www.sphereproject.org) والشراكة في المسألة الإنسانية الدولية (<http://fr.hapinternational.org>)، وانظر اليونيسف،

المعايير الإنسانية الأساسية للأطفال في العمل الإنساني، نيويورك، 2010، الصفحة 8، النسخة الإنجليزية متاحة على الرابط التالي:

http://www.unicef.org/lac/CCCs_EN_070110.pdf

تؤكد هذه المبادئ، باعتبارها مفاهيم توجيهية للعمل الإنساني، على قيمة الحياة الإنسانية بهدف حماية الأشخاص في زمن الخطر والطوارئ. وتستمد هذه المبادئ في صورتها المعاصرة المقننة⁷ مصدرها في نقطة التقاء الإنسانية والعمل الخيري والضرورة العملية المرتبطة بتنظيم استجابة منهجية وفعالة للاحتياجات الإنسانية المتعددة. وهي تشتق من الممارسات الميدانية والدروس المستفادة على مدار أكثر من قرن في إطار تطور العمل الإنساني الحديث. وعلى الرغم من أن بعض من هذه المبادئ حاضرة بشكل واضح في أذهان رواد العمل الإنساني الحديث، فقد استغرقت عدة عقود لتأخذ شكلها الفعلي. وقبل خمسين عامًا، اعتمد المؤتمر الدولي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في فيينا رسميًا قائمة من سبعة مبادئ أساسية. ولا يزال شرح⁸ المبادئ الأساسية، الذي ألفه «جان بيكتيه»، يمثل المصدر الرئيسي الموثوق فيه لتفسيرها.

ولا تقتصر المبادئ الأساسية على تحديد الغرض من المساعي الإنسانية وسبب وجودها (الإنسانية وعدم التحيز) بل تحدد أيضًا السمات التي يجب أن تتوافر في الجهة التي تقدم المساعدة والحماية (الحياد والاستقلال والتطوع والوحدة والعالمية). فعلى سبيل المثال، لا يمثل عدم التحيز موقفًا سلبيًا أو دفاعيًا؛ فهو يستلزم عملاً مستمرًا يهدف إلى تحقيق الثقة والقبول من جانب الجميع بغرض الوصول إلى الأشخاص المحتاجين. فهو «حياد فعلي» يمثل وسيلة لتحقيق غاية. بالإضافة إلى ذلك، لا توفر المبادئ رؤية معيارية شاملة للعالم. وبهذا المفهوم، لا تشكل المبادئ الموجهة للعمل الإنساني أيديولوجية (كما يبدو في بعض الأحيان من استخدام كلمة «الإنسانية» ذات الصلة بالمبادئ). وعندما تستخدم هذه المبادئ مجتمعة، فهي تهدف إلى توجيه العمل الملموس للجهات الإنسانية بطريقة عملية وترتبط بغاية، وليس بطريقة عقائدية.

وفي السنوات الأخيرة، أصدر الصليب الأحمر البريطاني سلسلة من دراسات حالة تظهر الارتباط العملي للمبادئ الأساسية، بما في ذلك دراسة عن لبنان نشرت في عدد سابق من *المجلة*⁹. تناقش «أميليا كيازي» نتائج هذا العمل في هذه السلسلة من *المجلة*. وهي تستخدم أدلة مستمدة من تسع جمعيات وطنية مختلفة لتوضح كيفية تطبيق المبادئ الأساسية في السياقات الحالية المتنوعة.

7 يشمل هذا النظام الأساسي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، متاح على الرابط التالي:

www.icrc.org/eng/resources/documents/misc/statutes-movement-220506.htm

وقواعد السلوك للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر والمنظمات غير الحكومية في مجال أعمال الإغاثة في حالات الكوارث، متاحة على الرابط التالي:

<https://www.icrc.org/ar/publication/conduct-international-movement-red-cross-red-crescent-movement-field-relief-work-disaster-situations>

والقرار رقم 182 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 46، 19 كانون الأول/ديسمبر 1991؛ والقرار رقم 114 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 58، 5 شباط/فبراير 2004؛ ودليل سفير: الميثاق الإنساني والمعايير الدنيا في مجال الاستجابة الإنسانية، متاح على الرابط التالي:

www.spherehandbook.org

والمعايير الإنسانية الأساسية المتعلقة بالجودة والمساءلة، متاحة على الرابط التالي:

www.corehumanitarianstandard.org وهي مجرد أمثلة قليلة على تقنين المبادئ.

8 «جان بيكتيه»، *الحاشية رقم 4* أعلاه.

9 انظر:

Sorcha O'Callaghan and Leslie Leach, "The Relevance of Fundamental Principles to Operations: Learning from Lebanon", *International Review of the Red Cross*, Vol. 95, No. 890, 2013, p. 302.

وقررت اللجنة الدولية، التي تعتبر عادةً متشددة في تقيدها الصارم بالمبادئ الأساسية، تقييم ممارساتها الخاصة في هذا الصدد. ففي 2013-2014 أجرت دراسة داخلية خاصة بها حول تطبيق المبادئ على مستوى عدة سياقات والتحديات التي تواجه هذا التطبيق والطريقة التي تشكل بها المبادئ عملية اتخاذ القرار العملياتي. ويعرض «باسكال دودين» و«جيرمي لابي» النتائج الرئيسية لهذه الدراسة الداخلية في هذا العدد.¹⁰

هل يمكن للمبادئ أن تجتاز اختبار النزاعات المسلحة اليوم؟

يمثل تطبيق المبادئ الإنسانية من جانب الجهات الإنسانية تحديًا مستمرًا ولا يضمن دائمًا الوصول والأمن والقدرة اللازمين لتحقيق اختلاف مهم في حياة الأشخاص المحتاجين. فالتشدد الذي يفرض إليه النزاع المسلح يضع المبادئ أمام أشد الاختبارات. وفي الوقت ذاته، فإن حالات النزاعات المسلحة هي التي تكون فيها الطاعة الصارمة للمبادئ الشيء الأكثر أهمية، إذ أنها القادرة على تهيئة المجال غير السياسي والمحايد اللازم لرعاية من يكونون في حاجة ماسة لمساعدة تنقذ أرواحهم. ولا تؤدي الاستجابة إلى الكوارث الطبيعية أو التكنولوجية بصفة عامة إلى إيجاد الضغط السياسي ذاته على الجهات الإنسانية.

وتعد الهجمات المباشرة ضد الطواقم والمتطوعين العاملين في المجال الطبي والإنساني من أكثر التحديات تطرفًا وقسوة، إلا أنها ليست واحدة من ضمن عدة تحديات تخشاها الجهات الإنسانية وتواجهها في عملها اليومي. وتستغل أطراف النزاع المساعدة الإنسانية لتحقيق أهداف سياسية والاتجار، لتحقيق بعض المكاسب السياسية، بما يجب أن يمثل التزاماتها غير القابلة للتفاوض تجاه سكانها بموجب القانون الدولي الإنساني. وعندما تشترك الدول في المساعدة الإنسانية في إطار استراتيجية «لكسب القلوب والعقول»، قد يؤدي هذا الخلط بين الأهداف السياسية والواجب الإنساني في تصور المجتمعات المحلية وجماعات المعارضة المسلحة. وقد يؤدي هذا في النهاية إلى مزيد من القتال الكثيف ووقوع المزيد من الضحايا ومزيد من العراقيل أمام الجهات الإنسانية التي ترغب في الوصول إلى الأشخاص المحتاجين. وبالمثل، إذ جُرمت المشاركة الإنسانية مع جماعات المعارضة المسلحة، فإن هذا يقلل المساحة التي يمكن أن يتم فيها العمل الإنساني المحايد وغير المتحيز.

تحلل مشاركات عديدة في هذا العدد نطاق الضغوط المفروضة على العمل الإنساني المحايد والمستقل وغير المتحيز والتي يمكن للدول والجماعات المسلحة غير الحكومية ممارستها في زمن النزاع وحالات العنف الأخرى. يناقش «كوبو ماشاك» السؤال الرئيسي المتعلق بما إذا كانت مبادئ عدم التحيز والحياد التي تميز العمل الإنساني ملزمة من الناحية القانونية، حيث يركز على «الدول باعتبارها جهات إنسانية». ويحلل «أندرو طومسون» التحديات التي واجهت المبادئ الإنسانية أثناء جهود التخلص من الاستعمار وبعدها وهي فترة تغيرت فيها طبيعة النزاع وسُيست فيها المبادئ، لا سيما بسبب أعمال التمرد الموجهة لمكافحة الاستعمار.

10 حول ممارسة اللجنة الدولية للمبادئ الأساسية، انظر أيضًا:

Fiona Terry, "The International Committee of the Red Cross in Afghanistan: Reasserting the Neutrality of Humanitarian Action", International Review of the Red Cross, Vol. 93, No. 881, 2011.

وبالنظر إلى سياق أستراليا اليوم، يحل «فوب و آين-بوب» و «إيفيت زيجينهاجن» و «فوف كورنادي» التهديد الحالي الذي يواجه العمل الإنساني المحايد والمستقل وغير المتحيز والذي يمكن أن تمثله تشريعات مكافحة الإرهاب.

هل يمكن أن تكون المبادئ عملية في عالم يتسم بالتنوع والانقسام؟

تستند المساعي الإنسانية الحديثة إلى التأكيد على أن المعاناة ليست لها حدود وأن جميع البشر يستحقون الحد الأدنى من المساعدة في أوقات الكوارث. كتب «جان بيكتيه» في تعليقاته يقول «الناس وإن اختلفوا، فإن الطبيعة البشرية واحدة في كل مكان ولا يوجد شيء أكثر انتشاراً من المعاناة البشرية التي يتساوى جميع البشر في الاستضعاف أمامها والحساسية تجاهها».¹¹ وكما ذكر سابقاً، فمن الواضح أن المبادئ المرتبطة بالعمل الخيري والمساعدة والحماية متصلة في كل الثقافات. وعلى الرغم من ذلك، واجهت الطبيعة العالمية للمبادئ تحديات مستمرة على مدار تاريخها.

ينظر عادة إلى المبادئ على أنها تعبير عن قيم غربية يحتمل أن تسيء إلى الثقافات أو الديانات المحلية أو تهيمن عليها باعتبارها تجسيداً جديداً لهيمنة ما بعد الاستعمار يقوض سيادة البلدان المتلقية. ويتضح هذا من خلال حقيقة أن الكيان المحوري للمؤسسة الإنسانية تمتد أصوله التاريخية في الغرب إلى القرن التاسع عشر، وهو وقت الهيمنة والتوسع الغربي. وعلى الرغم من أن المؤسسات الخيرية المحلية موجودة قبل فترة طويلة في كل مكان، فإن تنظيم أعمال الإغاثة الدولية على أساس منهجي نشأ بشكل واضح في مكان وفترة زمنية معينة. ولا تزال أغلب المنظمات الإنسانية الكبرى حتى اليوم لديها بصمة أوروبية أو أمريكية قوية. لذا يمكن بسهولة الخلط بين المبادئ الإنسانية والأهداف السياسية أو الاقتصادية الأخرى. وكان الغرب على مدار التاريخ وبصفة مستمرة موضع اتهام بالسعي إلى تحقيق ميزة سياسية واقتصادية أثناء تصدير الديمقراطية وحقوق الإنسان. وقد تواجه القوى الجديدة الناشئة في ميدان العمل الإنساني الدولي، بدورها، الشبهة ذاتها.¹²

وفي سياق نمو المنظمات الإنسانية وتطورها في جميع أنحاء العالم، سعت المجلة إلى توفير مساحة لعرض الآراء المختلفة، بما في ذلك وجهات نظر الجهات الإنسانية التي تستند في عملها إلى أسس إيمانية. استعرض «رونالد أفرترنغر» و «عبد الفتاح سعيد محمد» أصوات إسلامية في النقاش حول المبادئ الإنسانية» والمبادرات العديدة التي شهدتها السنوات الأخيرة لإعداد مدونة لقواعد سلوك المنظمات الإنسانية الإسلامية غير الحكومية والتي تعكس فكرة مفادها أن الأطر المرجعية الحالية للعمل الإنساني تتبثق أساساً من الغرب. وهي تسلط الضوء على الصلة الوثيقة والأهمية التي يتمتع بها الحوار الحقيقي بين الجهات الإنسانية ذات الخلفيات المختلفة لتحقيق فهم مشترك والشعور بالملكية الشاملة للمبادئ. تتحدى «لوسي في

11 المرجع السابق: صفحة 134.

12 انظر على سبيل المثال:

Andrea Binder, "The Shape and Sustainability of Turkey's Booming Humanitarian Assistance", *International Development Policy*, Vol. 5, No. 2, 2014, available at

<http://poldev.revues.org/1741>

David Shinn, *Turkey's Engagement in Sub-Saharan Africa: Shifting Alliances and Strategic Diversification*, research paper, Chatham House, 2015, available at

<https://www.chathamhouse.org/publication/turkeys-engagement-sub-saharan-africa-shifting-alliances-and-strategic-diversification>

ساليك» ما تصفه بالنموذج «العلماني الصرف» في المفاهيم السائدة للإغاثة والتنمية. وهي تستند إلى أبحاث منظمة الإغاثة الإسلامية لعرض إطار مقاصد الشريعة الإسلامية كنموذج للأساس الذي يمكن أن توفره النهج القائمة على أساس الإيمان للعمل الإنساني وثيق الصلة بالمجتمعات الإسلامية والمكمل للمبادئ الإنسانية. يعالج محمد هشام محمد كمال، في مقال الرأي، العمل الإنساني المحايد أثناء النزاعات المسلحة من منظور إسلامي. وأخيراً، تناقش «كاثارين كرافت» دراسة الحالة الخاصة بالكنائس الإنجيلية اللبنانية في تقديم المساعدات الغذائية للاجئين السوريين وجهود هذه الكنائس في احترام عدم التحيز.

التقت المجلة بالسيد «ما كيانغ»، نائب الرئيس التنفيذي لفرع شنغهاي بالصليب الأحمر الصيني في الوقت الحالي لتكوين فكرة أفضل عن خصوصيات الموقف الصيني من المبادئ الأساسية. وتكتسي هذه المحادثة أهمية في وقت تتزايد فيه مشاركة المنظمات الصينية المعنية بالاستجابة في الكوارث في الأزمات الدولية. وتتمتع الصين، كونها واحدة من أكثر البلدان تضرراً من الكوارث، بخبرة واسعة في الاستجابة للأزمات على أراضيها ويمكن الاستفادة منها على الصعيد العالمي. انخرطت الصين مؤخرًا أيضًا في تعاون ثنائي مع الدول ولكن هل ستختار الحكومة الصينية الانخراط مع أطراف غير حكومية ودعمها، وبشكل أكثر تحديداً، مع جهات إنسانية مستقلة؟

ولا يزال العمل الإنساني اليوم وفي أغلب الأحوال يخلق علاقة غير متكافئة في جوهرها بين الجهة المانحة ومتلقي المساعدة. والمساعدات تولد التوترات خاصة عندما ينتهج مزود المساعدة موقفاً أوبياً أو ينتهك جوهرها الحقيقي عندما تكون المساعدات مصحوبة باستغلال لوضع السلطة الذي يتمتع به. وإن تحليل مبادئ الإنسانية يعد كذلك وسيلة لدرء هذه الانحرافات الخطيرة؛ فهو يوضح أن احترام الكرامة يجب أن يكون هو الموجه الحقيقي الوحيد للمساعدة. ومع ذلك، فإن الإنسانية وإن كانت هي أكثر المبادئ الإنسانية قبولاً بلا شك وربما على الصعيد العالمي، فإنها لم تسلم من الخلاف والجدل. تعرف «لاريسا فاست»، في إسهامها في هذا العدد، هذا «المبدأ الأساسي» (كما يطلق عليه «جان بيكتيه»)¹³ وتكشف التوترات المتأصلة فيه وتطلق دعوة في التوقيت المناسب لتفعيله من خلال سلسلة من التدابير العملية.

وفي مناخ التشدد الحالي، قد يأخذ الاعتراض على الطبيعة العالمية للمبادئ الإنسانية شكل رفض صريح للمبدأ الأساسي للإنسانية من جانب الجماعات المسلحة المتطرفة أو أفراد الميليشيات المغيرة. يؤدي أخذ الرهائن وتوجيه هجمات مباشرة ضد العاملين في المجال الإنساني إلى منع الجهات الإنسانية من العمل في مناطق كثيرة في الشرق الأوسط والساحل وأفريقيا الوسطى. وهذه حقيقة محزنة ولكن ليست لها علاقة بالتعارض بين المعتقدات الدينية أو الدوافع السياسية/ الأيديولوجية بصفتها المذكورة والمبادئ التي توجه العمل الإنساني. وقد دحض الزعماء الدينيون هذه الممارسة صراحة.¹⁴

13 «جان بيكتيه»، الحاشية رقم 4 أعلاه، الصفحة 135.

14 In 2014, in an open letter to the head of Islamic State, Islamic scholars of different schools of thought highlighted how some of the basic tenets of humanity are part of Islam, recalling for instance that it is forbidden in Islam to kill "emissaries, ambassadors, and diplomats; hence it is forbidden to kill journalists and aid workers". Available at: www.lettertobaghdadi.com

وبعيداً عن تشويه المبادئ الإنسانية، قد تعزز هذه التحديات فعلياً من ضرورة التقيد بتلك المبادئ.

وعلى الرغم من ذلك، فإن التساؤل حول الطبيعة والقيمة العالمية للمبادئ إنما يشير إلى حاجة ملحة لحوار متجدد بين الأطراف التي تؤسس فكرها على أسس من الإيمان والأطراف التي تؤسس فكرها على أسس من المبادئ العلمانية وذلك بين الثقافات والديانات وممارسات الدول المختلفة بحيث يدور هذا الحوار حول فهم المفاهيم الإنسانية.

هل ستدوب المبادئ في خطة التحول العالمية؟

في السنوات الأخيرة، انبثقت أسئلة جديدة حول الصلة المعاصرة للمبادئ من النمو والتنوع الموازي للقطاع الإنساني وتوسيع نطاق ما ينتظره المجتمع الدولي كيفاً وكماً من العمل الإنساني.

وعلى الرغم من أن المبادئ الإنسانية حظيت بقبول وتوافق على نطاق واسع في القطاع الإنساني، فإن الأطراف الفاعلة التي تشكل هذا القطاع ليست متجانسة وقد يتباين تفسيرها للمبادئ تبايناً كبيراً.

وعلى الرغم من أن مكونات الحركة مقيدة بالمبادئ الإنسانية، فقد تختار منظمات أخرى تطبيق مبادئ توجيهية أخرى في عمله أو تفسير المبادئ الإنسانية الأربعة تفسيراً مختلفاً.

ويزعم البعض أنهم يتصرفون حسب المبادئ ولكنهم في الواقع قد يكونوا غير قادرين على القيام بهذا أو غير راغبين في ذلك. فعلى سبيل المثال، عندما يكون الدافع الرئيسي لمنظمة هو التضامن مع جماعة معينة على أسس سياسية أو عرقية أو دينية، فإن الطرف الآخر قد ينظر إلى المنظمة على أنها تأخذ جانب عدوه وهي نظرة صحيحة. وبالإضافة إلى ذلك، قد ينظر إلى جميع الجهات الإنسانية بعين الريبة إذا لم تتحقق مزاعم المنظمات بتطبيق المبادئ من خلال تصرفاتها. يكتب «إد شنكنبرغ فان ميروب» في هذا العدد حول ضرورة تقييم التطبيق الفعلي للمبادئ الإنسانية، لا سيما الحياد والاستقلال ويقدم اقتراحات عملية ملموسة للقيام بهذا مثل معايير الاستقلال المالي.

ومن المفارقات أن من أسباب صعوبة تطبيق المبادئ بهذه الطريقة هو نجاحها، وهي الفكرة التي يدفع بها كل من «جيري مي داودين» و«باسكال لابي» في مقالهما في هذا العدد.¹⁵ فيؤكدان في تحليلهما أن «في هذه الأيام هناك الكثير والكثير من المؤسسات ذات التفسيرات المتعارضة للمبادئ، وقد تطور طموح القطاع بحيث لم يعد يقتصر على معالجة آثار الأزمات بل امتد ليشمل أسبابها أيضاً». ولذلك، نجد أن الجهات الإنسانية مدفوعة للانخراط في خطة تحول واسعة وضعها المجتمع الدولي. وقد بدأ النهج المتكامل الذي أعدته الأمم المتحدة من عمليات حفظ السلام التقليدية ليتحول إلى مشروع تحول عالمي يجمع بين الممارسات الشريطية وتحقيق الاستقرار وإرساء سيادة القانون وتنفيذ برامج التنمية وتقديم المساعدات الإنسانية. وقد ألزمت الكثير من المنظمات نفسها بهذه الخطة الأوسع نطاقاً. وتستمر هذه الاستجابة

See Jérémie Labbé and Pascal Daudin, "Applying the Humanitarian Principles: Reflecting on the 15 Experience of the International Committee of the Red Cross", in this issue of the Review

الشاملة للنزاع، والتي تجمع بين الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية، من خلال سياسات الجهات المانحة بل وتتعاكس من خلالها أيضاً («نهج يشرك الحكومة بأكملها»¹⁶ على سبيل المثال). وهناك قول مقنع يذهب إلى أن نهجاً من هذا القبيل إنما يجلب مجموعة مختلفة تماماً من الأهداف والمنهجيات الإنسانية التي تتجاوز نطاق الأخلاقيات الإنسانية.¹⁷ وقد ظهر الاعتراف بهذا الوضع كمشكلة في تقرير شبكة التعلم للنشط للمساءلة والأداء الصادر في عام 2012 حول وضع «النظام الإنساني» حيث أكد أن:

تبرز النتائج وجود توسع مستمر وغير مريح لنطاق التمويل الإنساني ليشمل مجالات أنشطة تقع على هامش أعمال الاستجابة، بما في ذلك أنشطة التأهب، والحد من مخاطر الكوارث، وبناء القدرة على الصمود من ناحية، والتعافي المبكر وإعادة تأهيل البنية التحتية وتوفير الخدمات الأساسية لأجل غير محدد في ظل غياب بدائل تقودها الدولة من ناحية أخرى.¹⁸

يعرض «أنطونيو دونيني» و«ستيوارت غوردون» في مقالهما النقد العام لما يطلق عليه «مذهب الإنسانية الجديدة» (في مقابل الإغاثة الإنسانية بالشكل الذي تمارسه المنظمات المتقيدة بالمبادئ التقليدية). وهما يخلصان إلى أن الفرصة المثلى للوصول إلى الأشخاص المحتاجين اليوم هو التقيد بالمبادئ التقليدية. ويؤكد «بيتر ماورير» رئيس اللجنة الدولية هذا الاستنتاج حيث يؤكد «توضح خبرتنا أن الوصول العاجل إلى السكان المستضعفين في بعض المناطق المتنازع عليها إنما يعتمد على القدرة على عزل الأهداف الإنسانية عن الأهداف التحولية الأخرى، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو متصلة بحقوق الإنسان».¹⁹ وعلى الرغم من وضوح مزايا وجود مجموعة متنوعة من الجهات الإنسانية وإجراءات العمل، فإن مسائل جدول الأعمال المتسع للعمل الإنساني والحفاظ على قدرة العمل الإنساني الملتمزم بالمبادئ على العمل في أزمات مستقطبة بعيداً عن جداول الأعمال الأخرى يمكن أن تكون مواضيع للمناقشة بين الجهات الإنسانية ومع الدول المشاركة في المؤتمر الدولي الثاني والثلاثين للحركة والقمة الإنسانية العالمية في 2016.

16 See, for instance, Organization for Economic Cooperation and Development, *Whole of Government Approaches to Fragile States*, DAC Guidelines and Reference Series, 2006, available at www.oecd.org/dac/governance-peace/conflictfragilityandresilience/docs/37826256.pdf.

17 Hugo Slim and Miriam Bradley, "Principled Humanitarian Action and Ethical Tensions in Multi-Mandate Organizations in Armed Conflict", *World Vision*, March 2013, available at www.alnap.org/resource/9794

18 ALNAP, *The State of the Humanitarian System*, 2012 edition, Overseas Development Institute London, 2012, p. 85.

19 Peter Maurer, "Humanitarian Diplomacy and Principled Humanitarian Action", speech delivered at La Maison de la Paix, Geneva, 2 October 2014, available at: www.icrc.org/en/document/webcast-peter-maurer-humanitarian-diplomacy-and-principled-humanitarian-action. This speech is also reproduced in this issue of the Review

هل يمكن للعاملين في المجال الإنساني التحلي بـ «المهنية» و«الالتزام بالمبادئ»؟

كما ذكر سابقاً، كان تطور المبادئ في الواقع «بلورة» للخبرة للطويلة لموظفي الصليب الأحمر والهلال الأحمر العاملين في المجال الإنساني. وبهذا المعنى، فقد أسهم في إسباغ الصفة المهنية على القطاع بالمعنى الحقيقي للكلمة. ومع ذلك، كانت الجهات المانحة والمنظمات تفهم المهنة في أغلب الأحوال على أنها اعتماد معايير مهنية في قطاع الأعمال أو الإدارة في مقابل «ممارسات الهواة» التي تعد من السمات المميزة للماضي. وكما يذكر «فابريس فايسمان» في بيان حالة القطاع الإنساني، «من المشكلات الرئيسية في رأيي ظاهرة البيروقراطية: تخصص المزيد والمزيد من الموارد لإدارة المنظمات على حساب الرسالة الاجتماعية».²⁰

وفي الوقت الذي تحتاج فيه المنظمات الإنسانية دائماً إلى السعي الدؤوب إلى التقدم وزيادة فعاليتها بغرض تقديم خدمات إلى البشر المحتاجين، فإن قياس أدائها قد لا يسير على المعايير ذاتها الموجودة في القطاع الخاص. قد لا تسجل معايير الأداء المهنية للشركات (التي تطفو مجدداً على سطح المناقشات المعاصرة حول «القيمة مقابل المال» في تقديم المساعدات الإنسانية) اليعد الإنساني للمعانة والاستجابة الإنسانية لها. ولا يمثل دعم الكرامة الإنسانية واستعادتها النتيجة الميكانيكية لعملية معينة، ويجب مراعاة الالتزام بالمبادئ وهو شيء ممكن. قد يكون احترام المبادئ هو العلامة الحقيقية المميزة لقطاع إنساني مهني حقاً. ويجب تذكر هذا في المستقبل حيث قد تسند المساعدة الإنسانية إلى شركات خاصة.

وإذا بحثنا عن طريق ثالث بين العمل الخيري الذي يمارسه الهواة من ناحية والعمل الخيري الاحترافي من ناحية أخرى، فإن المبادئ الإنسانية هي التي قد تشير إلى الاتجاه الصحيح ومن ثم الاهتمام المتزايد بتكوين قيادة إنسانية جيدة يمكن أن تمثل فيها المبادئ مصدراً رئيسياً للإلهام لاتخاذ القرار والعمل. وتحتاج الجهات الإنسانية أيضاً إلى الاحتفاظ بجاذبيتها للمهنيين الشباب المتحمزين، بما في ذلك المتطوعون، ومرة أخرى، فإن الالتزام بالمبادئ قد يمثل قوة فعالة لتحفيز المتطوعين الجدد المتحمسين وتدعيم تماسك قوة العمل الإنساني.

توضح «كاتريان بيكمان» في مقالها في هذا العدد كيف يمكن تفعيل المبادئ الإنسانية في سلوك البشر عن طريق تعزيز القيم الإنسانية التي تقوم عليها هذه المبادئ، مثل احترام التنوع والمساواة والحوار وتجنب العنف والتفاهم المشترك. وقد اعتمد الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر هذا النهج الأكثر ابتكاراً لغرس المبادئ من خلال التعلم التجريبي على المستوى الفردي في تدريب المتطوعين والموظفين.

ICRC translation. Original French text: "L'un des principaux enjeux est, à mon sens, le phénomène de la bureaucratisation: de plus en plus de ressources sont consacrées à la gestion de l'appareil au détriment de la mission sociale." See "Etat des lieux du secteur humanitaire: Entretien avec Fabrice Weissman", *La Revue Internationale et Stratégique*, Vol. 2, No. 98, 2015, pp. 70–71.

ولاستكمال النظرة العامة لممارسة المبادئ الإنسانية، يضم هذا العدد من المجلة ثلاثة مقالات حول المبادئ المحددة وطرق العمل التي تنتهجها منظمات إنسانيتان تديران على نهج مبادئ «دونان». تستكشف «كارولين أبو سعدة» و«كزافييه كرومي» معنى مبدأ الخدمة التطوعية في منظمة أطباء بلا حدود، لا سيما فيما يتعلق بمواجهة المخاطر. ويوضح مقال «إلس ديوف» حول الوضع القانوني للجنة الدولية وامتيازاتها وحصاناتها ومذكرة اللجنة الدولية حول ميزة عدم الإفصاح عن المعلومات السرية، إجراءات عمل اللجنة الدولية والأساس المنطقي لها.

ويبدو أن المبادئ التي توجه العمل الإنساني تخدم غرضين رئيسيين مهمين للقطاع الإنساني: فهي تؤدي عملها بشكل متزامن «كأدوات لأداء العمل» وكعوامل مساعدة لتشكيل هويته. وفيما يتعلق بأول هذين الغرضين، توفر المبادئ إطاراً لانتقاء اختيارات صعبة في الميدان بشكل خاص وتساعد على كسب الثقة في نظر الأطراف المسلحة والمجتمع بشكل عام في زمن النزاعات والعنف، حيث تصيح التصورات مسألة حياة أو موت. وفيما يتعلق بالغرض الثاني، فإن تقنين هذه المبادئ هو نتيجة لخبرة العاملين في المجال الإنساني، فقد أسهمت هذه المبادئ منذ اعتمادها إسهاماً كبيراً في تشكيل هوية القطاع الإنساني، بما في ذلك ترسيم حدوده. وتعزز هذه الطبيعة المزدوجة التوترات المتأصلة داخل المبادئ: فغالباً ما يُحتج بها بطريقة بلاغية، إن لم تكن عقائدية، للتذكير بالهوية المحددة للقطاع (والوضع القانوني المصاحب لها) دون أن تكون مصحوبة بأي عمل يتماشى معها. وقد يؤدي هذا إلى مزاعم بالنفاق وما يخلفه ذلك من تأثير سلبي على المساعي الإنسانية الأوسع نطاقاً. ويتعين على من يزعمون الالتزام بالمبادئ «فعل ما يثبت قولهم».

وسيوصل هذان البعدان إثارة مناقشات وجدال مع تطور القطاع الإنساني وحاجته إلى التكيف مع أنواع جديدة من الأزمات في مشهد سياسي متغير باستمرار. ومع ذلك، قد يكون البعد الأهم في المبادئ هو جاذبيتها العالمية. فهذه المبادئ لا تقتصر على الجهات الإنسانية، فهي مبادئ إنسانية وشعارات توضع موضع التطبيق. وإن الدعوة إلى دعم الكرامة الإنسانية، التي تكمن في مبدأ الإنسانية، يمكن أن نسمعها جميعاً بل يجب أن نسمعها جميعاً. يكتب «هوغو سليم» يقول:

عندما تهدد حياة البشر في خضم العنف والنزاعات، يكون الشخص هو الهدف الإنساني، بدلاً من النسخة الكبيرة نوعاً ما من المجتمع السياسي. فالعمل الإنساني محوره الإنسان لا السياسة. ولا يوجد هدف أعظم من الإنسان في العمل الإنساني: ولا حتى السلام ولا الديمقراطية ولا تغيير الدين ولا الاشتراكية ولا الإسلام السياسي ولا النصر العسكري.²¹

ولعل هذا هو مبدأ الإنسانية في بعده العالمي الذي يحتاج اليوم إلى إعادة التأكيد عليه أكثر من أي وقت مضى، لا سيما في مواجهة الأطراف المسلحة التي تنكر مبادئ الإنسانية وفي مواجهة أسباب الوجود التي لا تزال تخضع الواجب الإنساني لاعتبارات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية.

يمكن للحوار الحقيقي والشامل بين الأطراف الإنسانية من الثقافات المختلفة أن يسهم في ذلك. ولكي تتجنب الجهات الإنسانية وضعا تجد نفسها فيه تخدم خطأ أخرى أو تزل قدمها في عدم مواكبة مستجدات العصر، فإنها تحتاج إلى إعادة ربط نفسها بالمثل الأعلى الذي وجهها منذ البداية وهو مبدأ الإنسانية.

فنسنت برنار
رئيس التحرير

المبادئ الأساسية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر*

أعلن المبادئ الأساسية المؤتمر الدولي العشرون للصليب الأحمر في فيينا عام 1965، وهذا هو النص المنقح الوارد في النظام الأساسي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وقد اعتمدها المؤتمر الدولي الخامس والعشرون للصليب الأحمر والهلال الأحمر في جنيف عام 1986.

الإنسانية

نشأت الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر نتاج رغبة في تقديم المساعدة للجرحى في ميدان المعركة بدون تمييز، والحيلولة دون وقع أي مآسي إنسانية والتخفيف منها في أي مكان طبقاً للقدرات الدولية والوطنية للحركة. إن الهدف منها هو حماية الأرواح والصحة لضمان احترام الإنسان. إنها تشجع وتعزز التفاهم والصداقة والتعاون المتبادل، والسلام الدائم بين الشعوب كلها.

عدم التحيز

إنها تتعامل بدون تمييز أو تفرقة بسبب الجنسية، أو العرق، أو المعتقدات الدينية، أو الآراء السياسية. وتحاول أن تغيب الأفراد المنكوبين، مُنقادة بدافع حاجات الأفراد فقط، مع إعطاء الأولوية لأكثر الحالات تضرراً.

الحياد

في سبيل التمتع بثقة الجميع، كان واجباً على الحركة أن لا تدعم أحد الأطراف في النزاعات، أو التورط في جدال سياسي، أو عرقي، أو ديني، أو أيديولوجي في أي وقت كان.

الاستقلال

تتمتع الحركة بالاستقلالية. ففي الوقت الذي تتبع فيه الجمعيات الوطنية أجهزة الخدمات الإنسانية لحكوماتها وتخضع لقوانين دولها الموفرة، كان لزاماً عليها أن تحافظ على استقلالها بحيث تكون قادرة على التحرك وفقاً لمبادئ الحركة في كل وقت.

الخدمة التطوعية

إنها حركة إغاثة تطوعية، لم تقم أبداً بدافع المكسب.

الوحدة

يجب وجود جمعية واحدة فقط للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر في الدولة. ويجب أن تكون مفتوحة للجميع. ويجب أن تقوم بالأعمال الإنسانية في منطقتها.

العالمية

إن الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، والتي تتمتع فيها كل الجمعيات بالمساواة وتشارك في المسؤولية والواجبات، هي حركة عالمية.

* انظر: